

مقدمة

أحمد الله ﷻ وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله كافة، وأخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمد النبي الأمين، وآله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

ففي أي حديث عن القرآن الكريم لابد لنا من التأكيد أنه كلام الله ﷻ الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، والمحفوظ بين دفتي المصحف الشريف باللغة نفسها التي أوحى بها (اللغة العربية)، محفوظاً بحفظ الله كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على مدى أكثر من أربعة عشر قرناً؛ وذلك تحقيقاً للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا ﷻ على ذاته العلية، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

هذا في الوقت الذي كانت صور الوحي السابقة كلها على تنزل القرآن الكريم قد ضاعت، وما بقي من ذكريات عن بعض منها، كان قد نُقل شفاهاً، ثم كُتب بلغات غير لغة الوحي، وتعرض في أثناء ذلك ولا يزال يتعرض لقدر من التحريف والتبديل الذي أخرجه عن إطاره الرباني، وجعله عاجزاً عن هداية أتباع تلك المعتقدات.

ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، فلا بد وأن يكون معجزاً في كل أمر من أموره، ومغايراً لكلام البشر، وأن يكون متميزاً عنه بميزات من الكمال والشمول، والإحاطة، ودقة التعبير، وجمال النظم، وروعة الإشارة، وصدق الإخبار في كل قضية من القضايا التي تعرض لها، وبصورة يعجز البشر جميعاً عن الإتيان بشيء من مثلها.

ومع العلم بأن القرآن الكريم هو - في الأصل - كتاب هداية للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا ﷻ عجز الإنسان عن إمكانية وضع أي ضوابط صحيحة لنفسه فيها، فإنه يحوي كثيراً من الإشارات إلى الكون وإلى عدد من مكوناته وظواهره. والهداية الربانية للإنسان تتركز في قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، التي تشكل القواعد الأساسية للدين. والإنسان يعجز عن الإتيان بشيء صحيح في هذه القضايا؛

وذلك لأنها إما أن تكون من أمور الغيب المطلق، أو الأوامر الإلهية التي لا سبيل لوصول الإنسان إليها إلا عن طريق وحي السماء، أو هي ضوابط للأخلاق والسلوك، ويؤكد التاريخ أن الإنسان كان -ولا يزال- عاجزاً عن وضع الضوابط الصحيحة للدستور الأخلاقي الذي يحكم سلوكه.

وهذه القضايا المتعلقة بالعقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، هي من أوضح أوجه الإعجاز في كتاب الله، إذا نظر إليها الإنسان بشيء من الموضوعية والحيدة، ولكن الناس درجوا في غالبيتهم على ميراث الدين، دون النظر فيه بعين البصيرة، فأخذوه بشيء من التعصب الأعمى والحمية الشخصية، حتى ولو كانوا من غير الملتمزمين به، ما يجعل إقناعهم بالحق الديني أمراً صعباً في أغلب الأحيان. أما الإشارات القرآنية إلى الكون ومكوناته وظواهره، فيمكن للمتخصصين في هذه المجالات أن يحكموا على دقة ما جاء منها في هذا الكتاب العزيز، ومن هنا يمكن اقتناعهم بصدق القرآن الكريم وبكل ما جاء فيه من أمور الدين.

ولما كان كل رسول من رسل الله قد أوتي عدداً من المعجزات في المجال الذي برع فيه قومه، حتى يشهد له ذلك بصدق رسالته، ولما كان القرآن الكريم قد جاء متحدياً للعرب -وهم في قمة الفصاحة والبلاغة وحسن البيان- أن يأتوا بشيء من مثله، ولم يتمكنوا من ذلك، تصوّر نفر من المسلمين أن الإعجاز في القرآن الكريم يتركز في جوانب بيانه ونظمه، وأفاض الأقدمون والمحدثون في تبيان ذلك. ومع تسليمنا بأن نظم القرآن الكريم معجز، فإن النظم يبقى إطاراً للمحتوى الذي يحمله، والذي هو من الإطار. ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية؛ العقيدة، والعبادة، ودستور الأخلاق، وفقه المعاملات، بالإضافة إلى العديد من الإشارات الكونية. والإعجاز في ذلك كله أوضح من الإعجاز في النظم وأبلغ، هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم يبقى معجزاً في كل أمر من أموره؛ لأنه كلام الله الخالق، الباري المصور، فما من أمر من الأمور تعرض له هذا الكتاب الخالد إلا وهو معجز حقاً، وما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان محايد إلى هذا القرآن الكريم بشيء من الموضوعية، إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز فيه، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «إن هذا القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد»^(١).

وقد عالج كثير من العلماء عدداً من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، إلا أن الإعجاز العلمي في هذا الكتاب العزيز لم تتضح جوانبه بجلاء إلا في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، فأصبح أسلوباً فريداً في الدعوة إلى دين الله باللغة الوحيدة التي يقبلها أهل عصرنا.

يحتوي القرآن الكريم على أكثر من ألف ومئتي آية صريحة، تتحدث عن السماوات والأرض، وعمما فيهما من مكونات وظواهر ومخلوقات، وهذه الآيات لم ترد من قبيل الإخبار العلمي المباشر للإنسان؛ وذلك لأن الكشف العلمي ترك لاجتهاد الإنسان وتحصيله عبر حقبات زمنية طويلة نظراً لمحدودية القدرات البشرية، وللطبيعة التراكمية للمعارف المكتسبة، ويؤكد ذلك أن هذه الإشارات العلمية في كتاب الله جميعها جاءت

في مقام الاستدلال على عظمة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وعلى أَنَّ الخالق ﷻ قادر على إفناء خلقه، وعلى إعادة هذا الخلق من جديد.

هذه الإشارات العلمية لا يمكن فهمها فهمًا كاملاً في إطار اللغة وحدها؛ ومن هنا كان لزاماً علينا أَنْ نوظف المعارف العلمية المتاحة في تفسير تلك الإشارات بالضوابط الشرعية والعلمية الصحيحة، ولما كانت المعارف المكتسبة في تطوُّر مستمر، وجب على أمة الإسلام أَنْ يخرج منها في كلِّ جيل نضر من علماء المسلمين، الذين يتزوَّدون بالأدوات اللازمة لتفسير كتاب الله؛ من مثل الإمام باللغة العربية وعلومها، وبالقدر اللازم من كلِّ من العلوم الشرعية والكونية، وغير ذلك مما يحتاجه كلُّ من يتشرف بالقيام بمثل هذه المهمة العظيمة.

وفي التفسير العلمي للآيات الكونية، نحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة، ولكن بما أَنَّ العلم لم يصل بعد إلى الحقيقة في كلِّ أمر من الأمور، فلا نرى حرجاً من توظيف النظرية العلمية السائدة، حتى لو ثبت خطؤها بعد ذلك؛ لأنَّ الخطأ هنا لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، وإنما ينسحب على المفسر؛ وذلك لأنَّ التفسير يبقى جهداً بشرياً إن أصاب فيه المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

أما الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فلا يجوز أَنْ يوظف فيه إلا القطعي الثابت من الحقائق العلمية؛ وذلك لأنَّ المقصود بالإعجاز العلمي إثبات أن القرآن الكريم الذي أوحى إلى نبي أمي ﷺ في أمة أمية، من قبل أربعة عشر قرناً، يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يتمكن الإنسان من الوصول إليه إلا منذ عقود قليلة، وبعد مجاهدات استغرقت آلافاً من العلماء، وعدداً من القرون، وهذا لا يمكن لعاقل أَنْ يتصور له مصدرًا إلا وحي من الله ﷻ. وهنا لا بد من تأكيد صعوبة التعرض لقضايا الإعجاز العلمي في كتاب الله إلا من قبل المتخصصين، كل في حقل تخصصه.

تتعدَّد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم بتعدُّد الزوايا التي ينظر منها إنسان محايد إلى هذا الكتاب العزيز، ومن ذلك الإعجاز ما يأتي: اللغوي، والعقدي، والتعبدي، والأخلاقي، والتشريعي، والتاريخي، والتربوي، والنفسي، والاقتصادي، والإداري، والإنبائي، والعلمي، والصوتي، والاجتماعي، والغبيبي، والتأثيري، والهندسي، والعددي، ورسم الحروف، والشمول والكمال، والحفظ بلغة الوحي نفسها، والتحدي للإنس والجن (فرادى ومجمعين).

وتأكيداً لانفراد القرآن الكريم - وهو كلام الله الخالق - بما يميِّزه عن كلام البشر، يقول ربنا ﷻ في

محكم كتابه:

• وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

[البقرة: ٢٣-٢٤].

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَّادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُم فاعلموا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[هود: ١٣-١٤].

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَّادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

• ﴿قُل لِّمَن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

[الإسراء: ٨٨].

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

تشكل الآيات الكونية قرابة سدس مجموع آيات القرآن الكريم البالغة (٦٢٣٦ آية)، وهي آيات كونية لا يمكن فهمها فهمًا كاملاً في إطار اللغة وحدها - على أهمية ذلك وضرورته - ولا يمكن الوصول إلى حقيقة سبقها بهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية - وهو المعروف باسم الإعجاز العلمي في القرآن الكريم - دون توظيف المعارف العلمية المتوافرة لأهل كل عصر، ومن هنا كانت الآيات القرآنية العديدة التي تشير إلى مستقبلية الكشف عن دلالات بعض الآيات القرآنية وذلك من مثل قول ربنا ﷻ:

١. ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]

٢. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايِنِهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

٣. ﴿إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧-٨٨].

٤. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

[فصلت: ٥٣]

٥. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِّنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]

تؤكد هذه الآيات القرآنية الكريمة ضرورة الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ وذلك لأنَّ التعبير القرآني (ذكر للعالمين) لا بدُّ وأن يكون باللغة التي يفهمها أهل الأرض جميعهم، واللغة الوحيدة التي يفهمها الناس كلهم اليوم هي لغة العلم. والتعبير القرآني (ولتعلمن نبأه...) معناه أن أهل الأرض جميعهم سوف يعلمون صدق ما جاء به القرآن الكريم من أخبار، أما تعبير (... بعد حين)، فمعناه بعد مدة من الزمن من تنزل الوحي بهذا الكتاب العزيز، ومن معاني ذلك أن كل ما أخبر به القرآن الكريم سوف يثبت صدقه لأهل الأرض جميعاً بعد مدة من الزمن على نزول الوحي به، وخير ما يمكن توظيفه في ذلك، هو سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى كم هائل من حقائق العلم، قبل توصل الإنسان

إلى شيء منها بقرون عديدة، وهذا مما يثبت ضرورة الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فعلى الرغم من وضوح هذا الأمر، فإن عدداً من المعادين للإسلام حاولوا التناول على هذا المنهج بغير حق وبغير دليل، ظناً منهم أن العملية تتم بغير ضوابط علمية وشرعية صحيحة، ولورد على هذه المزاعم الباطلة، نورد هنا عدداً من الضوابط اللازمة للتعامل مع هذه القضية في النقاط الآتية:

١. حسن فهم النصّ القرآني الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعد تلك اللغة، وأساليب التعبير فيها؛ وذلك لأن القرآن الكريم أنزل بلسان عربي مبين .
٢. فهم أسباب النزول -إن وجدت- للآية أو الآيات القرآنية الكريمة .
٣. فهم المأثور من تفسير المصطفى ﷺ للآية القرآنية الكريمة، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر.
٤. جمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية الكريمة (إن وجدت).
٥. جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، وفهم دلالة كل منها في ضوء الآخر؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه، ويفسره أيضاً الصحيح من أقوال رسول الله ﷺ، لذلك فإن من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توافر ذلك.
٦. مراعاة السياق القرآني للآية المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنصّ عما قبله وعما بعده، مع التسليم بأن في آيات القسم المتعدد يمكن أن ترد العديد من الحقائق المتتابعة، التي قد لا تكون بالضرورة مرتبطة ببعضها كما هو الحال في سورة الطارق.
٧. مراعاة قاعدة أن (العبرة هي بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب)، والاقتصار على القضية الواحدة في المقام الواحد، دون تكديس الآيات المستشهد بها؛ حتى يتضح جانب الإعجاز العلمي في كل منها.
٨. عدم التكلف أو محاولة لِي أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ وذلك لأن القرآن الكريم أعزُّ علينا وأكرم من ذلك.
٩. الحرص على عدم الدخول في التفاصيل العلمية الدقيقة التي لا تخدم قضية الإعجاز العلمي في الآية أو الآيات القرآنية الكريمة (وذلك من مثل المعادلات الرياضية المعقدة، والرموز الكيميائية الدقيقة) إلا في أضيق الحدود اللازمة لإثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية الكريمة .
١٠. ضرورة أن يكون المحقق للقضية العلمية من العاملين في هذا الحقل العلمي، إن لم يكن من المبرزين فيه.

١١. عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة (كالذات الإلهية، والروح، والملائكة، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر، ووقت قيام الساعة، والبعث، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، وغيرها) أو في المعجزات التي أوردها القرآن الكريم، والتسليم بالنصوص الواردة في ذلك تسليماً كاملاً، وذلك انطلاقاً من الإيمان بصدق كتاب الله ﷻ في جميع ما جاء به.

١٢. تأكيد أن كلاً من الساعة، والقيامة، والآخرة لها من السنن والقوانين ما يغير سنن الدنيا مغايرة كاملة، وأنها لا تحتاج إلى هذه السنن الدنيوية الرتيبة، فهي كما وصفها ربنا ﷻ أمر فجائي منه بقوله تعالى للأمر: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعلى الرغم من ذلك، فإن من رحمه الله ﷻ بنا أن أبقى لنا في صخور الأرض، وفي صفحة السماء أعداداً كثيرة من الشواهد الحسية التي تقطع بضرورة فناء الكون وبحتمية الآخرة، وأن الإشارة إلى تلك الشواهد الكونية لا يمكن أن تفسر بمحاولة تعرف موعدها؛ لأن وقتها من الغيبات المطلقة التي لا يعلمها إلا الله؛ ولأنها لن تتم بالسنن الكونية المشاهدة في هذه الحياة الدنيا.

١٣. توظيف الحقائق العلمية القاطعة في الاستشهاد على الإعجاز العلمي في الآية، أو الآيات القرآنية الواردة في الموضوع الواحد، أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في الآيات الكونية جميعها الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق والإفناء والبعث، فهذه القضايا لا تخضع لمشاهدة العلماء، ولذلك تكثر فيها الفروض والنظريات، وهنا يمكن توظيف الآية أو الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالموضوع للانتصار لإحدى النظريات المطروحة، فالحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن، ولكنها قد تزداد تفصيلاً وتوضيحاً باجتهاد العلماء جيلاً بعد جيل، وأن المعرفة العلمية إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون أو المعادلة الرياضية الصحيحة، فإنها لا تتغير، ولكنها قد تزداد وضوحاً مع الزمن؛ وذلك لأن حقائق العلوم المكتسبة جزئية، وقوانينها كذلك جزئية؛ لأنها تعبر عن جزئية محددة، لذلك فإن من طبيعة العلوم المكتسبة أنها تنمو نمواً مطرداً مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبقت معرفته من حقائق دون إغائها.

١٤. ضرورة التمييز بين المحقق لدلالة الإشارة العلمية في الآية القرآنية الكريمة، والناقل لها، مع مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية، وهو ما يعرف باسم (التحقيق العلمي)؛ لأن هذا مجال تخصصي في أعلى درجات التخصص.

١٥. تأكيد أن ما توصل إليه المحقق العلمي في فهم دلالة الآية القرآنية الكريمة ليس منتهى الفهم لها؛ لأن القرآن الكريم لا تنتهي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

١٦. اليقين بأن النص القرآني الكريم قد يأتي في مقام التشبيه أو المجاز، أو ضرب المثل، وتبقى صياغته صياغة دقيقة دقة مطلقة من الناحية العلمية، وإن لم تكن هذه الناحية مقصودة لذاتها؛ لأن كلام الله الخالق هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١٧. الأخذ في الحسبان إمكانية الانطلاق من الآية القرآنية الكريمة، للوصول إلى حقيقة علمية لم يتوصل العلم المكتسب إلى شيء منها بعد. ولو وعى المسلمون هذه الحقيقة، لسبقوا غيرهم من الأمم في الوصول إلى العديد من حقائق العلم، وعلى الرغم من تخلف المسلمين المعاصرين في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، فإن الباب لا يزال مفتوحاً أمامهم ليتسابق إليه المتسابقون من أهل العلم في كل مجال.

١٨. عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة الإشارات العلمية في كتاب الله، وذلك في حدود المعلومات التي كانت متاحة لهم في زمانهم؛ لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله، تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية بالتدرج مع مرور الزمن، في تكامل لا يعرف التضاد؛ حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

١٩. ضرورة التفريق بين قضيتي (الإعجاز العلمي) و(التفسير العلمي) للقرآن الكريم، فالإعجاز العلمي يقصد به إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى حقيقة من حقائق الكون، أو تفسير ظاهرة من ظواهره قبل وصول العلم المكتسب إليها بعدد متطاوّل من القرون، خاصة وقد جاء ذلك في زمن لم يكن لأي من البشر إمكانية الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق العلوم المكتسبة أبداً. أما التفسير، فهو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، إن أصاب فيها المُفسّر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وهنا يجب تأكيد أن الخطأ في التفسير ينسحب على المُفسّر، ولا يمس جلال القرآن الكريم، وانطلاقاً من ذلك فلا بد من الحرص على توظيف الحقائق العلمية كلها المتاحة في كل من القضيتين، ولكن لما كانت العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة في كثير من الأمور، فلا أرى حرجاً من توظيف النظريات السائدة في التفسير العلمي للإشارات الكونية في القرآن الكريم.

أما الإعجاز العلمي في هذا الكتاب العزيز، فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي الثابت من الحقائق العلمية التي لا رجعة فيها، وذلك في القضايا الوصفية جميعها. وأما القضايا المتعلقة بالخلق والإفناء والبعث لكل من الكون والحياة والإنسان، فيما أنّها لا تخضع لإدراكنا المباشر، فيجتهد العلماء في وضع عدد من النظريات لتفسيرها، حيث تتعدّد النظريات بتعدّد خلفية واضعها، ويبقى للمسلم نور من الله ﷻ في آية قرآنية كريمة يمكن أن تعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات.

٢٠. اليقين بصحة كل ما جاء في القرآن المجيد؛ لأنه كلام الله الخالق، المحفوظ بحفظه على مدى القرون الأربعة عشر الماضية، والمحفوظ بلغة وحيه نفسها (اللغة العربية)، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وعلى ذلك، فلا يمكن لحقيقة كونية ثابتة أن تصطدم بنص قرآني قطعي أبداً؛ لأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، والكون صنعته وإبداعه وخلقه، ولكن إذا بدا شيء من ذلك، فلا بد من وجود خلل ما، إما في صياغة نص الحقيقة العلمية، وإما في فهم الدارسين لدلالة النص القرآني الكريم، إذ إن غالبية الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً صاغتها أفلام غير مسلمة؛ ولذلك فإن الخلل العقدي في صياغتها وارد، مع دقة الملاحظة العلمية، وذلك مثل ما حدث في صياغة (قانون بقاء المادة والطاقة)، ومن هنا تأتي ضرورة إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة.

٢١. يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع كتاب الله، وإخلاص النية في ذلك، والتجرد له من كل غاية شخصية أو مكاسب مادية، ويجب أيضاً على المشتغلين بدراسة القرآن الكريم، أن يتذكروا قول المصطفى ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم، فليتبوأ مقعده في النار»^(٢).

من هنا كانت هذه (الموسوعة الميسرة للإعجاز العلمي في القرآن الكريم) والمكوّنة من خمسة كتب، عناوينها كما يأتي:

١. السماء في القرآن الكريم، ويشمل (٣٠) موضوعاً، و(٣٨) آية.
٢. الأرض في القرآن الكريم، ويشمل (٣٤) موضوعاً، و(٤٣) آية.
٣. النبات في القرآن الكريم، ويشمل (٢١) موضوعاً، و(٣٢) آية.
٤. الحيوان في القرآن الكريم، ويشمل (٢٨) موضوعاً، و(٣٢) آية.
٥. الإنسان في القرآن الكريم، ويشمل (٣٣) موضوعاً، و(٤٣) آية.

إنّ التباين بين عدد الموضوعات وعدد الآيات التي عالجتها هذه الموسوعة، هو أنّ بعض الموضوعات تعاملت مع أكثر من آية واحدة، أو أنّ بعض الآيات عولجت في أكثر من موضوع واحد.

ومجموع هذه الآيات التي نوقشت في هذه الموسوعة الميسرة هو (١٨٨) آية قرآنية كريمة، وذلك من بين أكثر من ألف ومئتي آية قرآنية كريمة، أشارت إلى الكون ومكوناته وظواهره. وواضح الأمر أنّ المقصود هنا ليس الحصر الكامل للإشارات الكونية في كتاب الله، وإنما إيراد بعض النماذج في هذا المجال، حتى يتذوق الناشئة وجهاً من أوجه الإعجاز في كتاب الله، هو الإعجاز العلمي، فيزدادون ثباتاً على دينهم، وقدرة على الدعوة إليه باللغة الوحيدة التي يتقبلها أهل عصرنا، ألا وهي لغة العلم، خاصة وأننا نعيش اليوم في زمن تقدمت فيه العلوم البحتة والتطبيقية تقدماً كبيراً، يرافقه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي مذهل في أغلب دول العالم، إلا أنّ الأمتين؛ العربية والإسلامية المعاصرتين تخلفتا عن ركب التقدم العلمي والتقني،

ما أدى إلى ضعفهما، وإلى تناول أهل الكفر والشرك والضلال عليهما، لذلك فإنَّ كلاً من العرب والمسلمين يعيشون اليوم في زمن فتن كبيرة، يتعرَّض فيها كلُّ من الإسلام والمسلمين لهجمة شرسة من قوى الشرِّ كلها في العالم، دون أدنى مبررٍ لذلك، وخير ما ندفع به هذا الهجوم الجائر علينا، وعلى ديننا ومقدساتنا، إثبات الدقة العلمية الفائقة التي صيغت بها الإشارات الكونية جميعها في كتاب الله (في شمول وتكامل يعجز عنهما الإنسان)، وإثبات أنَّ هذا الكتاب العزيز الذي أنزل قبل ألف وأربع مئة سنة سبق المعارف المكتسبة جميعها بالإشارة إلى العديد من حقائق الوجود، في زمن لم تكن أدوات الكشف عنها متوافرة لأي من البشر.

وهذا سبق العلمي في كتاب الله يؤكد لكلِّ ذي بصيرة أنَّ هذا الكتاب العزيز لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهد الذي قطع على ذاته العلية، بلغة وحيه نفسها (اللغة العربية)، وتمهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً؛ حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، بأنَّه كلام الله الخالق، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، وهذان الأمران من حقائق الدين الإسلامي، يغفل عنهما غالبية أهل الأرض في زمن الطوفان المادي الذي يغرق فيه إنسان اليوم.

هذا، وقد زوّدت الموسوعة بالصور العلمية الموضحة لكلِّ قضية من القضايا التي نوقشت، أملاً في المزيد من البيان، راجين أن ينفع الله ﷻ بهذه الموسوعة الميسرة الجيل الناهض من أبناء وبنات الأمّتين العربية والإسلامية، وإرضاءً لله ﷻ من وراء القصد، وهو تعالى الموفق والمستعان والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

زغلول النجار

عمان-الأردن

١٤٣٦/٩/١هـ

٢٠١٥/٦/١٨م

